مجلة الحقيقة للعلوم الاجتماعية والانسانية
EL - HAKIKA (the Truth)
Journal for Social and Human Sciences

المجلد: 20 / العدد: 03 / السنة: 2021 ص ص:139-148

الخطاب الصوفي، أبعاده وآثاره على الفرد والمجتمع

Sufi discourse, its dimensions and effects on the individual and society

عبد الله رزوقي

جامعة أحمد دراية. (أدرار. الجزائر)، razabdallah2018@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/09/13 **تاريخ القبول:** 2021/09/20 **تاريخ النشر:** 2021/09/30

ملخص:

اخذ التصوف منعطفا مميزا في المجتمع والثقافة، وكان محل اهتمام الكثير من الباحثين والنقاد، كما أن فكرة التصوف دارت بين معارض ومؤيد ذلك أن التجربة الصوفية كان لها أثر على المجتمع ودور بارز في تغيير بعض السلوكات والأخلاقيات، فالبحث في البعد الاخلاقي للتجربة الصوفية تدفع بالباحث الى البحث في النظرية الاسلامية التي تدعوا الى اتباع أسلوب اسلامي أخلاقي ينتج فردا مميزا، ولقد كان ولازال المتصوف في المجتمع يعد القدوة ومثل للأخلاق والصدق والمحافظة على الدين. بناء على ما سبق سنحاول في هذه الدراسة البحث في التصوف وإبراز أثره ودوره في المجتمع والأفراد.

كلمات مفتاحية: التصوف؛ المجتمع؛ الأخلاق؛ الاصلاح؛ النظرية الاسلامية.

Abstract:

Sufism has taken a distinctive role in society and culture. It has interested many researchers and critics. The idea of Sufism d Sufism revolved between opponents and supporters that the Sufi experience has had an impact on society and a leading role in changing certain behavior and ethics. The research in the ethical dimension of the Sufi experience pushes the academics to the research in Islamic theory that calls for the adoption of an Islamic moral method that produces a distinguished individual, and the mystic in society was and remains an example of morality, honesty and preservation of religion. Based on the above, we will try in this study to explore Sufism and highlight its impact and role in society and on individuals.

Keywords: Sufism**;** Society; Moral; Reform; Islamic theory.

مقدمة:

إنّ التصوف طريق ومنهج يتبعه الفرد للوصول الى الله والطريق الصحيح وذلك بالالتزام بالعبادات والاجتهاد فيها، ولقد ظهر هذا المذهب منذ القدم مع القرآن والسنة النبوية، وقدم العلماء عدة مفاهيم للتصوف، متفقين جميعا أن التصوف هو امتلاك الانسان صفات تجعله يصل الى السعادة الأبدية والتخلي عن الصفات الدنيوية والبذيئة، كما أن المتصوفة طائفة من طوائف الامة مثل الفقهاء والمحدثين اهتموا بدراسة الثقافة الاسلامية والسلوك واعتنوا بجانب العبادات الباطنة والأعمال القلبية، لقوله تعالى:" ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ (آل عمران: **164**) الا أن هناك من حرف في التصوف، وبما أن التصوف مذهب يبحث في البعد الاخلاقي والجانب الاسلامي، وعلى إثر هذه الفكرة يسعنا النظر في جملة الإشكالات الآتية والمترابطة وفق متطلبات هذا البحث وهي كما ياتي:

- ما أهمية ابراز الجانب الصوفي في القرآن؟
- ولماذا وقع الخطاب الصوفي بين مؤيد ومعارض؟
- وما الموقف من الطرق الصوفية وممارساتها؟
- وكيف كان أثر الخطاب الصوفي على الفرد وعلى المجتمع؟

المبحث الأول: الخطاب الصوفي

يعد الخطاب الصوفي خطابًا فكريًا ومثلهما تأويليًا وفنيًّا؛ فقد شكل منعطفا مهما في الثقافة العربية الإسلامية، وهذا لما " أوجده من إشكالات واختلافات في الرؤى النقدية والفكرية التي دارت حوله من الناحيتين الدينية والفلسفية .فعد هذا الخطاب مريبا مربكا وأحيانا كثيرة خروجا عن السنة والتشريع" (**خوالدية، 2014، ص15**).

فقد برز بعض التحريف والاضافات في الجانب الصوفي، وتبقى عملية استقبال الخطاب الصوفي من أصعب الاعمال ذلك أن على المتصوف اقناع الفرد والمجتمع بهذا الجانب،

وتقديم لغة اشارية اصلاحية خاصة، فاللغة الصوفية" لغة رمزية ذات دلالات كثيرة قابلة لأكثر من تأويل تتميز بالتخييل والتمثيل والتشبيه، "واللغة الصوفية تتوفر على قدرة المزاوجة بين الكلمة والمعنى بشكل يقترب من الشعرية، حتى وان بقى هذا الخطاب يحمل المضمون الشمولي لنظرة المتصوف للوجود وللعلاقة بالله، وعادة ما ينبثق النص الصوفي من خلال فهم خاص للمدلول اللغوي، حيث يتم استحلاب الجملة وتحويلها كتعبير للتجربة الروحية، وهو على هذا الأساس يتميز بسياقات متنوعة مرنة لا تخضع للمرجعية اللغوية المعجمية، وفيه تركيز على استخدام المصطلح الصوفي" (**خوالدية، 2014، ص237**).

احتل الخطاب الصوفي موقعا داخل المنظومة المعرفية بشكل قوي، وذلك "يعود الى ثراء هذا الخطاب، وقدرته على تخطي الحدود المكانية والفواصل الزمانية، والتموقع في الفضاءات الثقافي المناسبة، والتعبير عن الحالات الفكرية والوجدانية والجمالية والفلسفية. بل إن التصوف يكاد في راهنه الحالي يتحدى النصوص الكبرى في الثقافات البشرية" (**بلعلى، 2010، ص9**).

ومنه يمكن القول أن خطاب التصوف تجاوز الجزئيات ومس الكليات ، بحيث لزم على الفرد البدء في رحلة المعرفة وادراك العالم الالهي، وجعل العقل والعلم خدما للنفس.

المبحث الثاني: الممارسة الروحية

لقد برز للتصوف عدة مفاهيم وأوردها الباحثون بمفاهيم شتة، حيث نجد الجنيد يرى أن التصوف "تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتي، ومفارقة أخلاق الطبيعة، واخماد صفات البشرية، ومجانبة نزوات النفس والتعلم بعلوم الحقيقة، وعمل ما هو خير الى الأبد، والنصح الخاص لجميع الأمة، والاخلاص في مراعاة الحقيقة، واتباع النبي صل الله عليه وسلم في الشريعة" (**ديوان، 2009، ص21**).

وهنا يريد الجنيد أن يوضح في هذا المفهوم أن العبد المتصوف يتعلق بالله ويزهد في الدنيا ويبحث في الحقائق الروحية والروحانية، وبمجرد ما يمتلك المتصوف هذه الصفات يستطيع التأثير في الناس

لأنه يتبع الشريعة، فقد راعى المقصد والهدف من التصوف، ذلك أنه على الصوفي القيام بأعمال " لا يعلمها الا الحق وأن يكون دائما مع الحق على حال لا يعلمها الا هو" (**عون، 1983، ص18**).

وهنا عليه الاسترسال في الارتباط بالأعمال الروحية والعلاقة الصادقة مع الله، كما أن الكثير من الباحثين يثبت ويؤكد أن البذور الحقيقية والنشأة الصحيحة للتصوف جاءت من القرآن، وذلك لقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (**الحديد: 20**).

وفي سورة النساء قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (النساء: 77)، وهنا نرى أن الله تعالى يحبب المؤمن في الآخرة ويوضح أن الدنيا زائلة ومتاع فقط غير باق، فالمتصوفة ساروا وراء كلام الله تعالى متخليين عن الدنيا ومتاعها، باحثين عن الجنة والآخرة ، ومزاولة الاعمال الروحية، ومنه يمكن القول أنه "ليس التصوف من خصائص عنصر أو لغة أو أمة، بل هو مظهر روحي" (**ماسينيون، 2008، ص480**).

في حين يقول آخرون أن التصوف أصوله أجنبية، وهذا كله غير حقيقي لأنهم يسعون الى تجريد المسلمين من كل اجتهاد، فالصوفية صورة " للصفاء الروحي الذي أراد المسلم أن يصل إليه في تعبده وتقربه لله عز وجل أما ما حصل من خروج بعض المتصوفة على تعاليم الصوفية فهو مجرد خروج فردي لا يشوه صورة الصوفية بمعالمها الايجابية التي نراها في التحلي بالأخلاق السمحة الكريمة والصفات الاسلامية الرفيعة" (**ديوان، 2009، ص30**).

إن التصوف متواجد في جميع الأمم، وصار منهجا متبعا لدى المتصوفة للتقرب من المحبوب الله تعالى والفوز بالآخرة، فقد شاع في " الوثنية والماجوسية واليهودية والنصرانية والاسلام، كما عرفه في بعض أشكاله البابليون واليونان والرومان والهنود والصينيون" (**فروخ، 1972، ص20**)، وبهذا كثر المتصوفة وبرز منهجهم وانتشر.

فالتصوف مسألة ذاتية تمس النفس والروح البشرية تخاف العقاب بعد الموت، لأنه يرتبط "بموضوع التزكية، وطبيعة هذا الموضوع ذوقية محضة، وإن له منهجا هي التربية الروحية" (**بريكة، 2006، ص25**).

وبهذا فإن موضوع التصوف تعدى التزكية الى المعرفة الالهية الروحية، بناء على ما سبق يمكن القول أن المنهج الصوفي هو ذلك المنهج الذي ارتبط بالمجاهدات الروحية للتعرف على الحقائق، ويكون ذلك بنزول كل ما هو وارد وفيض التقوى على قلب المتصوف، ويعد اذن منهج ذوقي، يطرح العقل جانبا لقصوره على الوصول الى الحقائق المتعلقة بالذات الالهية.

المبحث الثالث: الاصلاح الأخلاقي

يعد منهج المتصوفة في التغيير والاصلاح. هو المنهج الأمثل لذلك، من ناحية أخرى وكما هو متعارف عليه فإن الرؤية الصوفية للإصلاح والتغيير ليست هي الرؤية الفريدة التي ترى نفسها الممثل الأمثل للرؤية الدينية الاسلامية. فهناك رؤى اسلامية أخرى ينبغي مقارنتها بها كالرؤية التي تعتمد على الاصلاح السياسي والبحث في القانون وتسوية الانظمة الدولية، ورؤية أخرى تسعى لسوية الفكر، ورؤية تعتمد على العمل والجهاد ومقاومة الأوضاع التي يرى المجتمع أنها رؤية مرفوضة ذلك أنها تعتمد على القوة والاسلحة، ورؤية تعتمد على البعد الروحي والعبادات.

ومنه فإن كما برزت رؤية جديدة تندد بالسلام لتغيير أوضاع المجتمع ، كل هذه وظهرت رؤية مؤخرا رؤى مختلفة تسعى لإصلاح المجتمع والأفراد، لكن لن يتم الاصلاح والتعديل ما لم يتم اصلاح النفس البشرية من صاحبها ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (**الرعد: 11**).

فكرة المتصوفة هي محاولة التغيير الاخلاقي والوصول الى عالم المثل العليا والقيم، لأنه " من احدى المميزات الكبرى للوجود الانساني هو اعتبار الانسان كائنا أخلاقيا يحتضن في أعماقه قوة باطنية هي الشعور الأخلاقي أو الضمير الذي يحكم على الأفعال الانسانية على ضوء ما تستحقه من قيم أخلاقية.

لقد عرف الانسان هذه التجربة الأخلاقية وهذا الميل نحو الخير عمليا منذ بداية ظهور الحياة الاجتماعية فأخذ يصدر أحكاما تقويمية على سلوكه وعلى سلوك غيره من الناس وإذا كان صحيحا أن لدى الانسان حاجات ودوافع عضوية يسعى لإشباعها مثله في ذلك مثل غيره من الكائنات الأخرى، إلا أنه يختلف عن تلك الكائنات جميعا في أنه الكائن الوحيد الذي يستطيع مراقبة دوافعه وإعلاء غرائزه. (**شكشك، 2009، ص119**).

يمكن أن نخلص فيما سبق الى أن هناك من يرى أن المجتمع دون أخلاق في تراجع وتغير للأسوأ، فالمجتمع يصبح في حالة تقدم اذا استوفى شروطا معينة، وفي حالة تدهور اذ لم يستوفي تلك الشروط. وقد يكون التقدم يشير الى تحول في القيم وتطور الفكر والابتعاد عن الرذيلة.

وقد أعطى أحد الدارسين" دورا كبيرا للعقل البشري في تغيير المجتمع ووصوله لمرحلة علمية متقدمة مرورا بمرحلة دينية ومرحلة فلسفية ميتافيزيقية، تفسر الظواهر في المرحلة الدينية بربطها بكائنات روحية خفية، والمرحلة الفلسفية تفسر الظواهر بمفاهيم ميتافيزيقية كالماهية والجوهر، والمرحلة العلمية تفسر الظواهر بعلاقات طبيعية تحدد هذه العلاقات قوانين مستمدة من التجربة والملاحظة" (**فؤاد، 1978، ص26**).

ان تحقيق الحياة الخيرة يعتمد على دستور يتيح لكل مواطن أن يتمتع بتلك الحياة الخيرة وبهذا ربط ارسطو بين الأخلاق والسياسة ورفض الحكم الشيوعي لآفلاطون لأنه يتعارض مع حق الملكية الخاصة ومع مؤسسة الأسرة. وقبل بعض أنواع الحكومات كما رفض أنواعا أخرى، وتلك

التي رفضها كان ذلك بسبب أن حكامها يستولون على السلطة والحكم من أجل مصالحهم الخاصة.

والحكومات التي قبلها مثل الملكية التي فيها السيادة لفرد فاضل يحكم لمصلحة الجماعة، والحكومة الارستقراطية التي تكون السلطة بيد أقلية خيرة تهدف لتحقيق الخير العام، والحكومة الجمهورية التي تحكم للصالح العام، والحكومات التي رفضها هي الحكومات الاستبدادية (**زروق، 2015، ص273**).

وهنا يقال إن الانسان لا يخرج عن كونه موجودا طبيعيا يملك الدوافع ويصدر في سلوكه عن بعض البواعث ويهدف من وراء نشاطه توجيها شعوريا واعيا نحو الغايات والأهداف بما يضمن تحقيق الذات واشباع رغباتها، ويجمع بين مستوى الضمير، والحق أن الانسان هو موجود القيم، فالشخصية البشرية هي ملتقى العالم الواقعي والعالم المثالي أو هي حصيلة التفاعل بينهما وإن ما نسميه الخير إنما هو عملية جهد حر يقوم فيها الانسان بالحث عن القيم بوصفها غايات حتى اعتبر البعض أن الأخلاق هي شبه صراع ضد الذات لنيل القيم.

المنهج الصوفي يتتبع طريقة الحوار والتحاور مع الآخر، فالمتصوف ليأثر في الفرد والمجتمع يجب أن يتحلى بمواصفات وسلوكات قويمة، فهو مسؤول مادام اختار هذا المنهج ليساعد في التأثير في المجتمعات، وتعليم الأفراد ما حث عليه ديننا الاسلامي من تسامح وتفاهم وتضامن.

وهذا ما أثبته بشير خلف بقوله:إن ديننا الاسلام الحنيف لا يكتفي بتعليم أتباعه هذا التفاهم الشامل بوصفه شرطا من شروط السلام الضروري للمجتمع الانساني، بل يطلب منهم الالتزام بالسلوك العادل الذي لا يقبل بالآخر فحسب، بل يحترم ثقافته، وعقيدته، وخصوصياته الحضارية، وخير وصف يمكن أن نطلقه على هذا التفاهم أنه تسامحي ايجابي، وليس تسامحا حياديا، كما لا يجوز أن يؤدي الخلاف في الرأي، أو في الفكر، أو في الاعتقاد الى إفساد مابين الناس من علاقات (**خلف، 2018، 108–109**).

ان مشاعر القلق والعبث والغربة والفراغ مشاعر متواكبة مع ارتفاع كل ايمان ضمني بالقيم ولابد لكل حياة إنسانية سوية من أن تجد لنفسها في صميم نشاطها العملي حلا واقعيا لمشكلة الشر الخاصة بها والحق أن الحياة أمران ينفصلان فنحيا للحياة بل دون أن نكتشف كل يوم أسبابا جديدة للحياة وحب الحياة على حين أن اليأس يغلق الكائن البشري على نفسه لكي يجعل منه ذرة روحية لا تحيا الا مع مشاغلها الخاصة ومشاكلها الذاتية نجد أن الأمل يحطم القيود الذاتية الضيقة.

ولا شك أن العالم المعاصر حافل بمظاهر التخصص والتجريد الذي عمل على فصم عرى الوحدة التي كانت تربط الانسان البدائي بالعالم ومن هنا انتبه المتصوفة وفلاسفة الأخلاق الى ضرورة العمل على استعادة أسباب اتصال الإنسان بالعالم حتى يضمنوا للموجود البشري ضربا من التكامل والتواصل بينه وبين العالم .

فمن المؤكد إن الحياة لابد من أن تكتسب معنى في نظر الانسان تزود الكائن الاخلاقي بطاقة روحية هائلة فتزيد من إيمانه بالنظام الأسمى الذي هو وحده الكفيل بتحديد الدلالة الكونية للإنسان إن الكثير من فلاسفة الأخلاق ليقولن إن الحب فضيلة الفضائل لأنه ينطوي في صميمه على قيمة أخلاقية كبرى ألا وهي الإرادة الخيرة أو النية الطيبة (**شكشك، 2009، 132–133**).

خاتمة:

بناء على ما سبق ومن خلال البحث في موضوع الخطاب الصوفي وما يترتب عليه من آثار على الفرد والمجتمع بالإضافة إلى أبعاد التصوف يمكن نستنتج النتائج التالية:

- على المتصوف أن يكوم مطلوبه ومقصوده وهمه وذكره ونطقه وفكره الله.
- يرى المتصوفة في لغتهم وسلوكهم تخلية القلب من الأخلاق الذميمة وتحليته بذكر الله وبذلك يصبح العبد قابلا وصالحا لتلقي الاشراقات والمعرف الالهية.
- ينصرف المتصوف عن كل شيء حتى عن نفسه فلا ينظر إلا الى انعكاس أنوار الجلالة الإلهي وهذا هو مختتم منهج الوصول وأسمى غايات السعادة للعرفان الصوفي.

- للتصوف دور فلسفي ونظري في مختلف الثقافات.
- ان فكرة المذهب الصوفي المعرفة الإلهية ويقصد بها أن المنهج التصوفي الحقيقي هو الذي ينتهي بصاحبه الى معرفة الله عز وجل، كما تأتي لصاحبها عن طريق النور الذي ينعكس في مرآة النفس.
- أثر المنهج الصوفي في المجتمع والأفراد تأثيرا إيجابيا يسعى الى تحسين الخلق والدعوة الى الطريق السليم والتخلي عن الرذائل .
- صار الخطاب الصوفي خطابا فعالا يدفع بقارئه نحو الأحسن.
- إعتمد المنهج الصوفي على الممارسات الروحية التي تتعلق بالله واتباع الشرع.

قائمة المصادر والمراجع:

1) بريكة، م .ب .(2006) .التصوف الاسلامي من الرمز الى العرفان .الجزائر :دار المتون للنشر والطباعة والتوزيع.

2) بلعلى،آ .(2010) .تحليل الخطاب الضوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة .الجزائر : منشورات الاختلاف.

3) خلف، ب .(2018) .بحثا عن ثقافة الحوار مع الذات ومع الآخر، *دراسة* .الجزائر : دار الهدى.

4) خوالدية، أ .(2014) .صرعى التصوف الحلاج وعين القضاة الهمذاني والسهرودي نماذج دراسات تحليلية نقدية مقارنة تستلهم مفاهيم نظرية التقبل، دراسات في التصوف .الرباط :دار الأمان.

5) ديوان، ع .ا .(2009) .الحلاج بين التصوف والفلسفة، الولاية والغواية، ، *ط1*، *ص .21*دمشق :دار النهج للدراسات والنشر والتوزيع.

6) زروق، ع .ا .(2015) .*التصوف وأثره في المجتمع* .السودان :شركة مطابع السودان للعملة المحدودة.

7) شكشك، أ : .(2009) .فلسفة الحياة، دراسة الفكر والوجود، سلسلة *2*، ، *ط1*، ، ص *119*. الجزائر :دار الشروق للنشر والتوزيع.

8) عون، ف .ب .(1983) .التصوف الاسلامي الطريق والرجال، مصر، *ط* .مصر : مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس.

9) فروخ، ع .(1972) .تاريخ الفكر العربي .بيروت :دار للعلم للملايين.

10)فؤاد، ج .م .(1978) .التغيير الاجتماعي .القاهرة :مكتبة وهبة.

11)ماسينيون، ل .(2008) .أخبار الحلاج .دار بيبليون، :دار بيبليون،.